العطف ووظائفه التركيبية والدلالية في سورة "هود"

فضل يوسف يوسف زيد (*)

الملخص

حظيت ظاهرة العطف باهتمام النحاة ،الذين وضعوا أصولها وقواعدها على مستوى المفردات والجمل . وهي من الظواهر اللغوية التي تتجاوز بنية الجملة إلى النص كله ، ويقوم العطف بربط المفردات والجمل المكونة لهذا النص ، كما أنه من الوسائل اللغوية التي تعمل على إطالة بناء الجملة ، وهذه ووظيفة تركيبية يتولد عنها- غالبا – الصور واللوحات القرآنية والتي ينسج العطف كثيرا من خيوطها . ويحاول هذا البحث أن ينهض بمهمة كشف العلاقات القائمة بين العناصر المشكلة للنص من خلال التطبيق على سورة من سور القرآن الكريم وهي سورة (هود).

* أستاذ مساعد بكلية دار العلوم . جامعة القاهرة . قسم النحو والصرف والعروض.

The Syntactical and Semantic Functions of Conjunctions in Surah "Hud"

Fadl Yussaf Yussaf Zeid

Abstract

The study of the conjunction has favorably received the attention of grammarians, who have instituted its rules on the levels of terms and sentences alike. The conjunction is one of the linguistic phenomena that goes beyond the sentence structure to affect the whole text. The conjunction can bind terms and sentences that altogether form a text. The conjunction is also one of the linguistic means that can help elongate the sentence structure, thus turning it into a complex sentence, which almost always engenders metaphors and portraits we find in the Quran, the yarns of which are mostly woven by conjunctions themselves.

This study attempts to explore the connections existing between the interconnected elements of text by taking a chapter from the Quran, "Surah Hood," as a case of study .

مقدمة :

يستعين النص في سبيل اتساقه وتماسك أجزائه بوسائل لغوية شتى ، ومن هذه الوسائل التي يسلكها النص لتحقيق تماسكه ظاهرة العطف ، وهي من الظواهر التي حظيت باهتمام النحاة الذين قننوا أصولها وقواعدها على مستوى المفردات ، وعلى مستوى الجمل حال عطفها أو قطعها ، وأولوا هذه الظاهرة من العناية ما تستحق ، كما حظيت باهتمام البلاغيين الذين انطلقوا في تناولهم لهذه الظاهرة من مجموعة القواعد النحوية التي وضعها النحاة لضبط العطف .

وظاهرة العطف من الظواهر اللغوية التي تتجاوز بنية الجملة إلى النص كله ؛ فهي تتجاوز المفردات والتراكيب إلى الربط بين الجمل ، بل إلى الربط بين المجموعة من الجمل ، والمجموعة التي تناسبها ، ومركب العطف بنية تقع داخل بنية أخرى أكبر هي النص ، فهو يشكل لبنة من لبنات النص ، وهذه اللبنة تترابط أولا فيما بينها بأدوات الربط التركيبية كالواو وغيرها من أدوات العطف ، ثم تترابط من بعد مع غيرها من مفردات وتراكيب وجمل النص؛ ومن ثم يكون التماسك بين أجزاء النص كله ؛ ففي قوله تعالى : (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) نجد أن مركب العطف " مستقرها ومستودعها " ترابط أولا فيما بينه داخليا من خلال عطف كلمة " مستودعها " على كلمة " مستقرها " بإحدى أدوات العطف وهي " الواو" التي توجب الاشتراك بين الشيئين في حكم واحد ، ثم ترابط هذا التركيب مع ما قبله ؛ إذ شغل موقع المفعول به للفعل (يعلم) ، كما أنه يرتبط بما بعده ؛ فقوله تعالى : " كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ " أي كل واحد من الدواب ، يتناسق مع الضمير المتصل بتركيب العطف السابق (ها) ، أي يعلم مستقر ومستودع كل دابة ، كل واحد من الدواب في كتاب مبين ، كما أن الجملة التي تشتمل على تركيب العطف ، وهي جملة (ويعلم مستقرها ومستودعها) معطوفة على جملة (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا) ، وبذلك تماسك تركيب العطف أولا فيما بينه ، ثم ترابط مع ما قبله ، ومع ما بعده من الكلام داخل النص .

وتأتي أهمية العطف من أن النص عبارة عن مجموعة من المفردات والجمل ، يقوم العطف بربط هذه المفردات والجمل المكونة للنص ، حيث يعمل العطف على ترابط التابع بمتبوعه ، وذلك من ترابط العناصر غير الإسنادية في الجملة (وهي غالبا ما تدور في فلك أحد عنصري الإسناد ، ولابد – لذلك – أن تترابط مع ما تدورفي فلكه، وتكون علاقاتها بأجزاء الجملة الأخرى من خلال علاقاتها النحوية بما ترتبط به ، إذ إن العنصر غير الإسنادي قيد لما يرتبط به.)[1] وهو ظاهرة تستوعب النص كله من أوله إلى آخره ؛ ولأمر ما كان إطلاق الكوفيين عليه اسم" عطف النسق "، (وهو من قولهم : ثغر نسق " إذا كانت أسنانه مستوية ، وكلام نسق إذا كان على نظام واحد فلما شارك الثاني الأول وساواه في إعرابه سمي نسقا) [2]

وقد أشار النحاة إلى وظيفة العطف الدلالية ودوره في تماسك الجمل وترابطها ،ومن ثم تماسك النص وترابطه يقول ابن يعيش : (اعلم أن العطف على ثلاثة أضرب : عطف اسم على اسم إذا اشتركا في الحال كقولك : قام زيد وعمرو ، ولو قيل : مات زيد والشمس لم يصح ؛ لأن الموت لا يكون من الشمس ، وعطف فعل على فعل إذا اشتركا في الزمان كقولك : قام زيد وقعد ، ولو قلت : ويقعد . لم يجز ؛ لاختلاف الزمانين ، وعطف جملة على جملة نحو : قام زيد وخرج بكر ، وزيد منطلق ، وعمرو ذاهب، والمراد من عطف الجملة على الجملة ربط إحدى الجملتين بالأخرى، والإيذان بحصول مضمونها ؛ لئلا يظن المخاطب أن المراد الجملة الثانية، وأن ذكرى الأول كالغلط ، كما تقول في بدل الغلط جاءني زيد عمرو ، ومررت برجل ثوب ، فكأنهم أرادوا إزالة هذا التوهم بربط إحدى الجملتين بالأخرى بحرف العطف ليصير الإخبار عنهما إخبارا واحدا). [3]

يفهم من كلام ابن يعيش إلى جانب التنصيص على وظيفة العطف الدلالية والنصية، وهي ربط الجمل بعضها ببعض ، اشتراطه لتحقق عملية العطف وجود جهة جامعة وحكم مشترك بين المعطوف والمعطوف عليه ، والتناسب بينهما ، وقد اعتمد النحاة على فكرة التناسب الذي يقوم على المعنى بين المتعاطفين في تفسير ظاهرة العطف(فليس العطف مجرد جمع بالواو بين عنصرين (مفردتين أو جملتين) إنما هو نتيجة عن أمر آخر هو بالأساس أمر معنوي يقوم على "جمع المجتمع" دون أن يبلغ ذلك درجة الاستواء)[4] ، والإخلال بهذا الشرط يفضي إلى فساد الكلام ؛ ولذلك يقول عبد القاهر الجرجاني مؤكدا على ضرورة هذا الشرط : (ثم إن الذي يوجبه النظر والتأمل أن يقال في ذلك : إنا وإن كنا إذا قلنا:" زيد قائم وعمرو قاعد " فإنا لا نرى ههنا حُكما نزعم أن " الواو " جاءت للجمع بين الجملتين فيه ، فإنا نرى أمرا آخر نحصل معه على معنى الجمع. وذلك أنا لا نقول : " زيد قائم وعمرو قاعد" ، حتى يكون عمرو بسبب من زيد ، وحتى يكونا كالنظيرين والشريكين، وبحيث إذا عرف السامع حال الأول عناه أن يعرف حال الثاني . يدلك على ذلك أنك إذا جئت فعطفت على الأول شيئا ليس منه بسبب ، ولا هو مما يُذكر بذكره ويتصل حديثه بحديثه لم يستقم . فلو قلت: " خرجت اليوم من داري" ، ثم قلت : " وأحسن الذي يقول بيت كذا " ، قلت : ما يضحك منه . ومن هنا عابوا أبا تمام في قوله :

لا والذي هو عالم أن النَّوى صَبِرٌ وأنّ أبا الحسين كريمُ

وذلك أنه لا مناسبة بين كرم أبي الحسين ومرارة النوى ، ولا تعلّق لأحدهما بالآخر، وليس يقتضي الحديث بهذا الحديث بذاك). [5]

إن هذا النص يؤكد على ضرورة شرط التناسب والمعادلة بين المعطوف والمعطوف عليه حتى تتحقق عملية العطف ، وهو شرط دلالي بالدرجة الأولى .

ويحاول ها البحث أن ينهض بمهمة كشف العَلاقات القائمة بين العناصر

المشكلة للنص مفرداته وتراكيبه وجمله ، والتي قد تبدو لأول وهلة أن لا جامع بينها ولا رابط ، وذلك من خلال ظاهرة نحوية أولاها النحاة والبلاغيون أهمية خاصة ، تلكم هي ظاهرة العطف ، وهي ظاهرة تتميز بخصوصيات معينة ؛ فقد أتاح لها النظام اللغوي أن تتنوع وأن تتعدد، فيمكن أن يعطف المفرد على المفرد ، والتركيب على التركيب ، والجملة على الجملة ، بل والمتتالية من الجمل على المتتالية التي تتشاكل معها وتتناسب ، وهذا التنوع والتعدد الذي أتاحه لها نظام اللغة يجعلها تؤدي وظيفتين في السياق النصي الذي ترد فيه : وظيفة تركيبية ، وهي إطالة بناء الجملة الأصلية من خلال ضم المتعاطفات بعضها إلى بعض ، ووظيفة دلالية غالبا ما تترتب على الوظيفة السابقة . ولما كانت الظواهر اللغوية تستمد حياتها من خلال الإجراء والاستعمال ؛ فقد عمِدت إلى التطبيق على سورة من سور القرآن الكريم ، وهي سورة " هود"؛ حتى لا يحدث قطع للتنظير عن الاستعمال ، اقتداء بسالف نحاتنا الذين لم يكونوا في وصفهم للظواهر اللغوية يقطعونها عن الإجراء والاستعمال .

وقد أدرت هذا البحث على مقدمة وخمسة مباحث وخاتمة ، ألممت في المقدمة إلمامة عاجلة بأهمية ظاهرة العطف في الدراسات النحوية ، ودورها في تماسك النص وترابطه . وتحدثت في المبحث الأول عن التناسب الدلالي بين الجمل المتعاطفة في سورة هود ، وتحدثت في المبحث الثاني عن دور العطف التركيبي في إطالة بناء الجملة ، ودوره الدلالي في رسم اللوحة والصورة القرآنية ، وتحدثت في المبحث الثالث عن الجمل المتباعدة أو المنفصلة ، فكثيرا ما لا تعطف الجملة على الجملة التي تليها مباشرة ، بل قد يفصل بينهما بجملة أو جملتين ، أو مجموعة من الجمل ، بل مجموعة من الآيات ، وعلى الرغم من ذلك تظل الجملتان المتعاطفتان متماسكتين ومترابطين دلاليا .وتحدثت في المبحث الرابع عن إمكانية تعدد المعطوف عليه ، وكيف يكون ذلك سببا في ترابط الجمل ومن ثم في ترابط السورة كلها ، وتحدثت في المبحث الخامس عن وصل الجمل وترابطها بدون حروف العطف ،فقد تغيب حروف العطف فتبدو الجمل والآيات المكونة للسورة منفصلة ، وعلى الرغم من ذلك تظل هذه الجمل والآيات مترابطة متماسكة مستعيضة بروابط وعلاقات معنوية قائمة بين جملها وآياتها. أما الخاتمة فتشتمل على أهم ما توصل إليه البحث من النتائج . وعلى الله قصد السبيل .

المبحث الأول : التناسب بين الجمل المعطوفة في سورة " هود "

اشترط النحاة لتحقق عملية العطف التناسب بين المعطوف والمعطوف عليه (فلا يُتصور إشراك بين شيئين حتى يكون هناك معنى يقع ذلك الإشراك فيه)[6] فلابد أن يكون بينهما جهة جامعة وحكم مشترك ، فذلك من الأصول المتحكمة في الربط بين الجمل والتراكيب في النص، يقول السكاكي:(واعلم أن الوصل من محسناته أن تكون الجملتان متناسبتين)[7] وفي سورة هود تنسجم الجمل والآيات

بواسطة علاقة العطف التي تضم الجمل والتراكيب بعضها إلى بعض في نسق بديع حتى لو بدت العلاقات بين جملها وتراكيبها للوهلة الأولى أن لاجامع بينها ؛ ففي قوله تعالى:(الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ)[8] نجد أن جملة (فُصِّلَتْ) عطفت على جملة (أُحْكِمَتْ) بحرف " ثم " الذي يفيد الترتيب والتراخي، فبعد أن أتقنت آيات الله صنعا ، ناسب ذلك أن يعطف عليها التفصيل لتلك الآيات ؛ لأن النفوس بعد الإحكام والإجمال تشرئب إلى التفصيل والبيان ، كما نجد أن جملة (وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ) من الآية (3) قد عطفت على جملة (أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ) من الآية (2) الواقعة تفسيرا لجملة (أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ) من الآية (1) ، وعلى ذلك فالجملة المعطوفة (وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ) تعد تفسيرا ثانيا لجملة (أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ)، وأما جملة (إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ) الواقعة بين الجملتين المتعاطفتين ، فهي جملة معترضة بينهما ، إلا أنها غير منبتة الصلة عما قبلها ، وهو جملة (أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ) ، فهي تشير إلى التحذير من مخالفة النهي عن عبادة الله، وتحرض على امتثال هذا النهي (فالرسول بشير بالرضوان والجنة لمن أطاعه، ونذير مخوف من عذابه وسطوته لمن عصاه)[9] ، وبذلك تترابط الجمل فيما بينها ترابطا أساسه المعنى من خلال العطف . عطفت بعد ذلك على الجملة الثانية من الآيات المحكمات (اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ) جملة (ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ) بثم التي تفيد الترتيب والتراخي ؛ (لأن التوبة أي الإقلاع عن الذنب تأتي بعد الاستغفار)[10]، عطفت بعد ذلك جملة (وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ) من الآية (3) على الجملة التي تسبقها مباشرة وهي جملة (يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى) الواقعة جوابا للطلب ، والجملة المعطوفة داخلة في مضمون المعطوف عليها ؛ لأن إيتاء كل صاحب عمل صالح ثوابه في الآخرة من المتاع الحسن . يقول أبو حيان : (تقدم أمران بينهما تراخ ، ورتب عليهما جوابان بينهما تراخ ، ترتب عل الاستغفار التمتيع : المتاع الحسن في الدنيا ، كما قال : " فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا. يرسل السماء عليكم مدرارا " نوح : 10،11 . وترتب على التوبة إيتاء الفضل في الآخرة ، وناسب كل جواب لما وقع جوابا له ؛ لأن الاستغفار من الذنب أول حال الراجع إلى الله ، فناسب أن يرتب عليه حال الدنيا . والتوبة هي المنجية من النار ، والتي تدخل الجنة ، فناسب أن يرتب عليها حال الآخرة .) [11]

عطفت بعد ذلك جملة (وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) على جملة (إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ) ؛ (لأنه لما ذكر سبحانه المرجع أولا دليلا على المبدأ ثانيا ، ناسب ذلك أن يعطف عليه القدرة ثانيا دليلا على تمام العلم أولا ؛ لأنهما متلازمان)[12]، والجملتان المتعاطفتان اسميتان مما يفيد الثبات والتأكيد . عطفت بعد ذلك جملة (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا) من الآية (6) على جملة (يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ) من الآية (5) ، وقد فصل بين الجملتين بجملة (إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) ؛ لأنها وقعت تعليلا للجملة المعطوف عليها ، وبذلك ترابطت الجمل في الآيتين ، ثم

عطفت جملة (ويعلم مستقرها ومستودعها) على الجملة التي قبلها وهي (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا) أي والله يعلم مستقر كل دابة ومستودعها . عطفت بعد ذلك جملة (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ) من الآية (6) على جملة (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا) فإنه - سبحانه – لما ذكر ما يدل على علمه المطلق ، ناسب ذلك أن يعطف عليه ما يدل على قدرته المطلقة أيضا ، والتي من مظاهرها خلق السموات والأرض .

عطفت بعد ذلك جملة (ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ) على جملة (وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً) من الآية (9) وقد أفاد العطف بثم التي تفيد الترتيب والتراخي ، أن الله يمهل الإنسان في نعمه ، ولا يسلبها منه على استعجال . عطفت جملة (وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي) من الآية (10) على جملة (وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً) بكل ما عطف عليها وتعلق بها ، فهي متصلة بها ومتممة لها ؛ لأنها حكت حالا ضد الحال قبلها .عطفت بعد ذلك جملة (وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ) على الجملة التي قبلها مباشرة من الآية (12) (إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ) ، وتفيد الجملة المعطوفة أن النبي ﷺ ليس موكلا بإلجائهم إلى الإيمان ،أو قسرهم عليه ، وإنما الله وكيل على قلوب المكذبين.عطفت بعد ذلك جملة (وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) من الآية (13) على جملة (فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ) إمعانا في التحدي للمشركين وإظهارا لعجزهم ، وعجز من يعاونهم من دون الله على الإتيان بمثل القرآن ، حتى لو كان المأتي به مفترى ، إي إن عجزتم عن الإتيان بعشر سور من تلقاء أنفسكم ، فلكم أن تستعينوا بمن تتوسمون فيه القدرة على ذلك ، ومن ترجون أن ينفعكم بتأييده من آلهتكم ، وذلك إمعان في التحدي وإظهار لعجزهم. عطفت بعد ذلك جملة (فَإِنْ لم يسْتَجِيبُوا لكم فاعْلُموا) من الآية (14) بكل ما عطف عليها وتعلق بها على جملة (وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ) من الآية (13)، وبذلك ترابطت الآيتان من خلال العطف ، والجمل في هذه الآية متصلة بعضها ببعض ،ومرتب بعضها على بعض في نسق بديع ؛ فجملة (فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا) عطفت على جملة (وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ)أي فإن لم يستجب من تدعونه من دون الله إلى معارضة القرآن ، فعليكم إذن أن تذعنوا ، وأن تعلموا أن القرآن من عند الله ومنزل بعلمه سبحانه ، ثم عطفت على جملة الجواب السابقة (فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ) جملة (وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) ، ثم عطف على ذلك الأمر بالإسلام في جملة (فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) ؛ لأن الاستفهام معناه - هنا – الأمر كما يقول القرطبي في تعليقه على هذه الآية : (استفهام معناه الأمر)[13] وجيء بالجملة الاسمية التي تدل على الثبات والتمكن .

عطفت بعد ذلك جملة (وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا) من الآية (16) على جملة (لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ) من الآية نفسها ، وجملة (وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) اسمية عطفت على جملة (وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا) وهي مؤكدة لمضمون الجملة

المعطوف عليها يقول أبوحيان : (وباطل وما بعده توكيدا لقوله : وحبط ما صنعوا)[14]، وبذلك ترابطت الجمل في الآية السابقة فيما بينها من خلال حرف العطف الواو كأحسن ما يكون الترابط. عطفت بعد ذلك جملة (وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ) من الآية (18) على جملة (يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ) الواقعة خبرا عن اسم الإشارة (أولئك)، وفي الآية التي تليها عطفت جملة (وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا) على جملة (يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ الله) ، كما عطفت جملة (وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ) على جملة (وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا)، وكل هذه الجمل داخلة في قول الأشهاد من الآية السابقة، وبذلك ترابطت الجمل في الآيتين من خلال الرابط التركيبي واو العطف، إلى جانب طول جملة صلة الموصول (الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ) من خلال عطف الجمل عليها وضم بعضها إلى بعض، وهو ما يصور حال هؤلاء الذين كذبوا على ربهم.عطفت بعد ذلك جملة (وما كانوا يبصرون) على جملة (مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ) من الآية (20) ثم عطفت جملة (وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) من الآية(21) على جملة (خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ) ، ومناسبة الصلة بين الجملتين أنهم لما خسروا أنفسهم بعبادة غير الله ، ناسب ذلك أن يعطف عليه تخلي آلهتهم المزعومة عنهم ، وأنها لم تنفعهم. عطفت بعد ذلك جملة (وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) من الآية (23) على جملة صلة الموصول قبلها (آمَنُوا) ، ثم عطفت جملة (وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ) على جملة (وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) ، وبذلك طالت جملة صلة الموصول من خلال عطف الجمل ، وهي جمل مترتبة بعضها على بعض ، كما أنها توضح صفات المؤمنين الذين أقبلوا على الله واطمأنوا إليه وخشعوا متوجهين منقطعين إلى الله ، في مقابل فريق الكافرين الذين خسروا أنفسهم في الآية السابقة .وفي قوله تعالى في الآية التالية (24) : (مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) نجد أن القرآن عطف الأصم على الأعمى ، وعطف البصير على السميع ؛ فالأعمى والأصم تركيب عطفي ، والسميع والبصير تركيب عطفي آخر، يمثل التركيب الأول فريق الكافرين، ويمثل التركيب الثاني فريق المؤمنين ، فإن الله – سبحانه- لما استوفى أوصاف الفريقين وجزاءهم في الآيتين السابقتين ، ضرب للكل مثلا بقوله:(مثل الفريقين) أي الكافرين والمؤمنين، ويساعد على هذا الفهم للآية على هذا النحو وجود قرينة حددت المعنى فيها ، وأزالت عنها اللبس ، وهي علامة التثنية في (الفريقين) ، وضمير المثنى في (يستويان) ، وبذلك ندرك أن السياق يتناول فريقين أحدهما أعمى أصم ، والآخر بصير سميع .فالعطف كان للصفات لا للأفراد، وذلك على الرغم من تكرار واو العطف ثلاث مرات ، فبدا التركيب كأنما يتحدث عن أربعة أفراد .[15]

انتقلت الآيات بعد ذلك إلى ذكر عدد من قصص مجموعة من الأنبياء تسلية للنبي ﷺ ، وتصديقا له ، واعتبارا بها ، وتأسيا بما لاقاه أصحابها ، وقد احتوت على

سبع قصص. القصة الأولى : قصة نوح عليه السلام مع قومه ، وقد استغرقت أربعا وعشرين آية (25- 48) عطفت في الآية (27) جملة (فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ) بكل ما عطف عليها وتعلق بها عبرالآية كلها على جملة (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ) من الآية (25) ، وبذلك فصل بين الآيتين بآية كاملة ، ورغم ذلك فالآيتان متماسكتان مترابطتان دلاليا ، وفي العطف بالفاء إشارة إلى مسارعتهم بالتكذيب والمجادلة الباطلة لنوح ، عطف بعد ذلك على جملة مقول القول(مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا) ثلاث جمل فعلية وهي : جملة (وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ) ، وجملة (وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ)، وجملة (بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ) ، وهذه الجمل المعطوفة داخلة كلها في قول قوم نوح ، وقد أدى ذلك إلى طول الجملة من خلال العطف على أحد أركانها ، وهو جملة مقول القول الواقعة مفعولا به ، كما أفادت هذه الجمل المتعاطفة عناد قوم نوح وإصرارهم على تكذيبه . عطفت بعد ذلك جملة (وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ) على جملة (إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي) ، ثم عطفت جملة (فعميت عليكم) على جملة (وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ) بفاء التعقيب للدلالة على إسراعهم بالإنكار والتكذيب قبل التأمل والتفكير .عطفت بعد ذلك جملة (وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا) من الآية (29) على جملة (يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي) عطف نداء على نداء، وفي تكرار نداء نوح لقومه بواو العطف تلطف منه قد يعطفهم إليه ويستدرجهم في قبول كلامه .عطفت بعد ذلك جملة (وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا) على جملة (لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا) من الآية نفسها ، والجملة المعطوف عليها سبب في الجملة المعطوفة ؛ لأن نفي طلبه المال من قومه يؤذن بأنه لا يمكن أن يؤذي مؤيديه ومريديه لإرضاء قومه ، وفي هذا دحض لقولهم (وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا) عطفت بعد ذلك جملة (وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ) من الآية (30) على جملة (وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا) من الآية السابقة (29) عطف نداء على نداء استعطافا لقومه وتلطفا معهم ،ثم عطفت بعد ذلك على جملة (لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا) من الآية (29) أربع جمل تبدأ بداية واحدة بفعل القول المضارع المنفي بلا وهذه الجمل هي : ولا أقول لكم عندي خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول إني ملك ، ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا ، وقد جاءت هذه الجمل تفصيلا لإجمال رد نوح على قومه في الآيتين السابقتين وعلى ما أورده قومه من شبه ، نافيا أن يكون قد ادعى فضلا عليهم غير الوحي إليه ،وهو أن يكون عنده خزائن الله، أو أنه يعلم الغيب ، وقد جاء النفي بصيغة المضارع للدلالة على انتفاء هذه الأمور عنه في الحال ، وقد عملت هذه الجمل المتعاطفة على طول بناء الجملة الأصلية ، كما قد فصل بين الجملتين المتعاطفتين بآية كاملة ، ومع ذلك فالجمل مترابطة متصلة .عطفت بعد ذلك جملة (فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا) على جملة (قَدْ جَادَلْتَنَا) من الآية (32) بالفاء ، وهو ما يوحي بامتعاضهم وضجرهم من تكرار مجادلة نوح - عليه السلام - لهم . عطفت بعد ذلك جملة (وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ

لَكُمْ) من الآية (34)على جملة (إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ) من الآية (33) فهي معطوفة على وعظهم بحلول العذاب الذي يستعجلونه تهكما وازدراء حينما قالوا : (فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين) عطفت بعد ذلك جملة (وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) على جملة (هُوَ رَبُّكُمْ) وهما جملتان اسميتان تفيدان الثبات والتأكيد .عطفت بعد ذلك جملة (وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ) من الآية (36) على جملة (قالوا يا نوح قَدْ جَادَلْتَنَا) من الآية (32) ، وبذلك فصل بين الجملتين المتعاطفتين بثلاث آيات كاملة ، ومع ذلك فالجملتان مترابطتان ، أي بعد أن قال له قومه ذلك وطلبوا أن يأتيهم بالعذاب على سبيل التهكم أوحى الله إليه (أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ)، عطفت بعد ذلك جملة (وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا) من الآية (37) على جملة (فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) من الآية (36) ، وهي بذلك داخلة فيما أوحى الله إليه به ، فتدل على أن الله أوحى إليه كيف يصنع الفلك ، كما عطفت جملة (وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا) على جملة (وَاصْنَعِ الْفُلْكَ) من الآية نفسها ، وهي جملة تؤذن بنزول العقاب الشديد بقومه ، كما أن عطف الجمل بعضها على بعض قد أدى إلى طول الجملة الموحى بها . عطفت بعد ذلك جملة (وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ) من الآية (38) على جملة (وَاصْنَعِ الْفُلْكَ) من الآية (37)، وقد عطف المضارع على الأمر لاستحضار الحالة كأن نوحا - عليه السلام - بصدد العمل ، وهو من عطف الخبر على الإنشاء. عطفت بعد ذلك جملة (وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ) على جملة (يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ) من الآية (39) ، وقد أفادت الجملة المعطوفة تأكيد حلول العذاب . عطفت بعد ذلك جملة (وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا) من الآية (41) على جملة (قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا) من الآية (40) ، ثم عطفت جملة (وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ) من الآية (42) على جملة (وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا) من الآية (41) ؛ لأن نداءه ابنه كان قبل جريان السفينة في موج كالجبال ؛ إذ يتعذر إيقافها بعد جريها.عطفت بعد ذلك جملة (وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ) على جملة (ارْكَبْ مَعَنَا) من الآية (42) (لإعلامه بأن إعراضه عن الركوب يجعله في صف الكافرين)[16]. انتقلت الآيات بعد ذلك إلى مشهد انتهاء الطوفان ، وسأرجئ الحديث عنه إلى المبحث الثاني الخاص بدور العطف في رسم اللوحة القرآنية . عطفت بعد ذلك جملة (فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي) على جملة (وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ) (عطف تفسير ؛ لأن القول المذكور هو عين النداء)[17]، كما عطفت جملة (وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ) وجملة (وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ) على جملة (وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ) ، وهي كلها جمل اسمية تفيد الثبات والتاكيد ، وهو ما يعني من نوح التسليم المطلق بحكم الله وقدره .انتقلت الآيات بعد ذلك إلى قصة هود مع قومه عاد ؛ فعطفت جملة (وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا) بما عطف عليها وتعلق بها على جملة (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ) بكل ما عطف عليها وتعلق بها ، فهو من عطف القصة على القصة ، وهو مما يساعد على تماسك السورة كلها من أولها إلى آخرها .عطفت بعد ذلك جملة (وَيَا

قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ) على جملة (يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ) عطف نداء على نداء تلطفا من هود مع قومه استعطافا واستدراجا لهم . عطفت بعد ذلك جملة (وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ) على جملة (يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ) الواقعة جوابا للطلب ، ومكان الصلة بين الجملتين المتعاطفتين بالواو(أن إرسال المطر عليهم بكثرة وكانوا أهل بساتين وزروع وعمارة سبب لزيادة قوتهم وسعة أرزاقهم)[18] ، وعطفت جملة (وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ)على جملة (اسْتَغْفِرُوا) تحذيرا من الرجوع إلى الشرك .عطفت بعد ذلك جملة (وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ) من الآية (53) على جملة (مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ)، ومكان الصلة بين الجملتين أن هودا لما لم يأتهم ببينة (معجزة) توافق هواهم ومقترحاتهم ، كان ذلك سببا في إصرارهم على عبادة آلهتهم المزعومة ؛ ولذلك عطف على ذلك قولهم (وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ) ، فكانت الجملة المعطوفة نتيجة للجملة المعطوف عليها، ثم عطفت بعد ذلك جملة (وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ) لتفيد توكيد جملة (وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا) قال أبوحيان : (والجملة بعدها تأكيد وتقنيط له من دخولهم في دينه) [19]والجمل المعطوفة كلها جمل اسمية تفيد جدهم فيما يقولون وثباتهم ؛ لأن من شأن الجمل الاسمية الدلالة على الثبات .

عطفت بعد ذلك جملة (وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ) على جملة (أُشْهِدُ اللَّهَ) من الآية (54) والجملة المعطوفة إنشائية لفظا خبرية معنى (فقد عدل أدبا مع الله عن أن يقول : وأشهدكم – لئلا يتوهم تسوية – إلى صيغة الأمر تهاونا بهم فقال : (واشهدوا)) [20]

ولذلك ساغ العطف بين الجملتين .عطفت بعد ذلك جملة (فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تنظرون) من الآية (55) على جملة (أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ) من الآية (54) ، ومكان الصلة بين الجملتين أن براءة هود من شركائهم تعني عجز هذه الشركاء عن إلحاق ضرر به ، ولذلك عطف عليه قوله (فكيدوني جميعا) أي أمر قومه بأن يكيدوا له هم وأصنامهم، ثم عطف على هذا الأمر جملة (ثم لا تنظرون) بأداة التراخي (ثم) تحديا لهم فنهاهم عن التأخير بكيدهم له استخفافا بهم وبأصنامهم. عطفت بعد ذلك جملة (فَإِنْ تَوَلَّوْا) من الآية (57) على جملة (إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ) من الآية (54) ، وبين الجملتين المتعاطفتين جمل كثيرة ، ومع ذلك فهما مترابطتان دلاليا ؛لأن الجملة المعطوفة تفصيل لمضمون الجملة المعطوف عليها، وعلاقة الإجمال والتفصيل من العلاقات الناظمة لتركيب النص .

عطفت بعد ذلك جملة (وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ) على جملة (نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا) من الآية (58) واستعمل (نجيناهم) ماضيا بمعنى المستقبل لتحقق الوعد بوقوعه، ومناسبة العطف بين الجملتين (أنه لما بين إنجاءهم من قومهم بين إنجاءهم مما أهلكهم به فقال مكررا ذكر التنجية دلالة على أن عذابهم كان في غاية الفظاعة (ونجيناهم) [21] عطفت بعد ذلك ثلاث جمل فعلية وهي: (وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ

الْقِيَامَةِ)على جملة (جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ) الواقعة خبرا عن اسم الإشارة (تلك عاد) وما يوحي به من إضفاء دلالات البغض والبعد على قوم عاد ، تلخص الجمل المعطوفة مع الجملة المعطوف عليها الجرائم التي ارتكبها قوم عاد ؛ فهم قد كذبوا بآيات ربهم، وعصوا رسله ، وقد جاءت كلمة الرسل مجموعة مع أنه رسول واحد إشارة إلى أن من عصى واحدا فقد عصى الكل ؛ لاتفاق الرسل على أمر واحد .ثم اتبعوا أمر من لا يأمر بخير ، ولا يدعو إلا إلى باطل ، وهم دعاة الكفر والضلال ، ثم عطف على مجموع ما سبق من جرائم جملة (وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ) فقد جمع لهم عذابان ، عذاب في الدنيا ، وعذاب في الآخرة ، في مقابل إنجاء هود والذين آمنوا معه في الدارين ، وهكذا تتماسك الآيات وتتراص .وقد قام العطف بوظيفة مزدوجة في هذه الآية ، فقد طالت الجملة من خلال عطف الجمل بعضها على بعض ، وهذه وظيفة تركيبية ، كما قامت الجمل المعطوفة بسرد جرائم قوم عاد ؛ لأنه كلما عطفت جملة كلما أضيف معنى دلالي جديد ، وهذه وظيفة دلالية.

انتقلت الآيات بعد أن انقضت قصة عاد إلى قصة ثمود ، فعطفت جملة (وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا) على جملة (وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا) عطف القصة على القصة ، عطفت بعد ذلك جملة (فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ) من الآية (61) على جملة (أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا) ، فبعد أن خلقهم الله من الأرض ناسب ذلك أن يعطف عليه إعماره لهم فيها ، وبعد أن ذكرهم بهذه النعم (الإنشاء والإعمار) عطف على ذلك الأمر بالاستغفار والتوبة ، فكانت الجملة المعطوف عليها سببا وعلة للجملة المعطوفة .عطفت بعد ذلك جملة (وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ) من الآية (62)على جملة (يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا) من الآية نفسها فبعد أن ذكروا يأسهم من صلاح حاله ذكروا أنهم يشكون في صدق أنه مرسل إليهم وزادوا ذلك تأكيدا بالنون واللام وبالإشارة بالظرف إلى إحاطة الشك بهم .

عطفت بعد ذلك جملة (فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ) على الجملة الاستفهامية (فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ) ، والجملة المعطوفة نتيجة لمعنى الاستفهام ، أي إذا لم يكن لي ناصر غير الله فما دعاؤكم لي إلا زيادة في خسراني ، وقال الفراء : (فما تزيدونني غير تخسير لكم وتضليل لكم)[22]، وهو من عطف الخبر على الإنشاء، فقد تختلف الجملتان خبرا وطلبا ومع ذلك يسوغ العطف بينهما ؛ لأن المقام يشتمل على ما يزيل الاختلاف من تضمين الخبر معنى الطلب ، أو الطلب معنى الخبر كما يقول السكاكي[23] ، فالجملة الاستفهامية في الآية السابقة متضمنة معنى الخبر، فمعنى (من ينصرني من الله): ليس لي ناصر إلا الله؛ فالجملة طلبية لفظا خبرية معنى ؛ لأن الاستفهام معناه النفي كما يقول القرطبي [24]؛ ومن أجل ذلك ساغ العطف . عطفت بعد ذلك جملة (وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً) من الآية (64)

على جملة (يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي) من الآية (63)عطف نداء على نداء تلطفا من صالح مع قومه استعطافا واستدراجا لهم ، ثم عطف على ذلك جملة (فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ الله) ، ثم عطف على ذلك النهي بعدم الاقتراب منها بأي سوء، ثم عطف على ذلك جملة (فعقروها) بالفاء التي تدل على إسراعهم إلى مخالفته لأمره، ثم عطف على ذلك جملة (فَقَالَ تَمَتَّعُوا) أي حينما بلغه الخبر .عطفت بعد ذلك جملة (وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ) من الآية (67) على جملة (نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ) من الآية (66) مع ملاحظة أن القرآن عبر عن قوم ثمود بقوله : (الذين ظلموا) إيماء إلى سبب أخذهم وهلاكم ، وذلك لظلمهم (وفيه تعريض بمشركي أهل مكة بالتحذير من أن يصيبهم مثل ما أصاب أولئك ؛ لأنهم ظالمون أيضا)[25]، وجملة (فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ) عطفت على جملة (وأخذ الذين ظلموا الصيحة) والجملة المعطوفة سبب عن الجملة المعطوف عليها بالفاء التي تدل على السرعة والانقضاء ، وهذه العلاقة السبب / النتيجة من العلاقات الناظمة لتركيب النص ،مما يساعد على ترابط الجمل وتماسكها دلاليا ، ومن ثم تماسك النص وترابطه .

لما انقضت قصة صالح ، أتبعها الله قصة لوط ، وقدم عليها ما يتعلق بها من أمر إبراهيم – عليه السلام- فعطف جملة (ولقد أرسلنا إبراهيم بالبشرى) على جملة (ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه) عطف القصة على القصة . ثم عطفت جملة (فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ) على جملة (قَالَ سَلَامٌ) ، وتدل الفاء العاطفة – هنا – على التعقيب إسراعا في إكرام الضيف ، وتعجيل قراه . عطفت بعد ذلك جملة (فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ) بالفاء على محذوف ، والتقدير : فقربه إليهم ، فلم يمدوا أيديهم فقال : ألا تأكلون ؟فلما رأى أيديهم.[26] ، وجملة (وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ) معطوفة على جملة (نَكِرَهُمْ) الواقعة جوابا للما فهي لا محل لها، والجملة المعطوفة سبب عن الجملة المعطوف عليها ؛ إذ لما رأى إبراهيم إمساكهم عن الطعام حسبهم يضمرون له شرا ونكرهم لذلك ، ناسب أن يعطف على ذلك التوجس والخوف منهم، وجملة (فَبَشَّرْنَاهَا) عطفت على جملة (فَضَحِكَتْ) ، والجملة المعطوفة سبب أيضا عن الجملة المعطوف عليها أي فتسبب عن تعجبها أنا بشرناها .

انتقلت الآيات بعد ذلك إلى قصة لوط ، فعطفت جملة (وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا) على جملة (سِيءَ بِهِمْ) الواقعة جوابا للما، وبناء الفعل للمفعول في هذا السياق أوقع في النفس ، ثم عطفت على الجملة السابقة جملة (وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ) (ومن بديع ترتيب هذه الجمل أنها جاءت على ترتيب حصولها في الوجود ، فإن أول ما يسبق إلى نفس الكاره للأمر أن يُساء به ويتطلب المخلص منه ، فإذا علم أنه لا مخلص منه ضاق به ذرعا ، ثم يصدر تعبيرا عن المعاني وترتيبا عنه كلاما يريح به نفسه) [27] عطفت بعد ذلك جملة (وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ) من الآية (78) على جملة (ولما جاءت رسلنا لوطا ..) من الآية (77) ، وترسم الجملة المعطوفة صورة قوم لوط وهم

يندفعون إلى المعصية وارتكاب الفاحشة (فعل الطامع الخائف فوت ما يطلبه.)[28] عطفت بعد ذلك جملة (وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي) على جملة (فَاتَّقُوا اللَّهَ) لما أمرهم بتقوى الله في أن يؤثروا البنات على الأضياف بقوله : (هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ) ولما كانت تقوى الله إذا حصلت منهم تحول دون إلحاق الذل والهوان والعار والخزي بلوط عند أضيافه ناسب أن يعطف على أمرهم بتقوى الله نهيهم عن الإتيان بما يجلب الفضيحة التي تخزيه ، عطفت بعد ذلك جملة (وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ) على جملة (لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ) من الآية (75) وقد أكدت الجملة المعطوفة الجملة المعطوف عليها ، حيث أكدت كونه يعلم أن لا حق لهم في بناته (والظاهر أن معنى من حق : من نصيب ، ولا من غرض ولا من شهوة ، قالوا له ذلك على سبيل الخلاعة)[29]، وقد أكدت الجملتان المتعاطفتان ؛ (لأن لوطا أنزل منزلة من ينكر أنه يعلم ؛ لأن حاله في عرض بناته عليهم كحال من لا يعلم خلقهم)[30]من إتيان الذكور ، وما لهم فيه من الشهوة .عطفت جملة (فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ)على جملة (لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ) من الآية (81) ومكان الصلة من الجملتين أن الجملة المعطوف عليها لما أفادت أن قوم لوط لن يقدروا على إلحاق ضرر به من خلال نفي المستقبل بقوله (لن يصلوا إليك) حيث (تنفي (لن) الأفعال المضارعة وتخلصها للاستقبال معنى)[31] ناسب أن يعطف على ذلك الأمر بالسرى ليلا إظهارا لوجه إنقاذ لوط من قومه في المستقبل باستئصالهم وبنجاته . لما انتهت قصة لوط ، أُتبعت بقصة مدين قوم شعيب، وقد عطفت على القصص قبلها بجملة (وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا)، وقد قال لهم ما قال من سبقه من الأنبياء من الأمر بعبادة الله الواحد الأحد بقوله:(اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) ، ثم تدرج بعد ذلك شعيب – عليه السلام – في نهيهم عن الفساد الذي أغرقوا فيه ، فبدأ بنهيهم عن التطفيف في الميزان بقوله: (وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ) ، ثم عطف على ذلك النهي عن أكل أموال الناس بالباطل فقال : (وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ) وهي جملة تؤكد تعميم النهي عن كل نقص بالتطفيف وغيره في جميع الأموال ، ثم عطف على ذلك النهي عن الإفساد في الأرض ، وهو أكبر أنواع الفساد في الأرض فقال:(وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) عطفت بعد ذلك جملة (وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا) على جملة الشرط المستفهم عنه (إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي) ، ثم عطفت جملة (وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي) من الآية (89) على جملة (يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي) من الآية (88) عطف نداء على نداء استعطافا لقومه ، وتلطفا معهم ، وكأنه يقول لهم : يا أعز الناس عليّ.

ثم عطفت جملة (وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ) على جملة (لا يجرمنكم شقاقي) ومكان الصلة بين الجملتين أنه لما حذرهم من المكابرة والمعاندة ، ورهبهم منها كي لا يحدث لهم ما حدث للأمم السابقة عليهم ، فليسوا ببعيدين عنهم كما قال : (وما قوم لوط منكم ببعيد) عطف على ذلك الترهيب ترغيبهم في التوبة فعطف الأمر

بالاستغفار (واستغفروا ربكم) على النهي السابق (ولا يجرمنكم شقاقي) ، ثم عطف على الأمر بالاستغفار الأمر بالتوبة بأداة التراخي (ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ) منبها على قدر التوبة ، ثم علل الإقبال على الله والتوبة إليه بقوله : (إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ) عطفت بعد ذلك جملة (وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا) من الآية (96) على جملة (مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ) ومكان الصلة بين الجملتين أنهم لما كانوا لا يفهمون كلامه استهزاء منه ، أو لا يفهمونه لأنه يحملهم على أمور لم يعهدوها مثل البعث والنشور ووجوب التوحيد وحرمة البخس[32] أو قالوا ذلك إعراضا عن سماعه واحتقارا لكلامه ، وكان ذلك تمهيدا لإدانته عطفوا على ذلك قولهم (وإنا لنراك فينا ضعيفا) بالجملة الاسمية التي تفيد الثبات والتقرير والمؤكدة بإنّ واللام الواقعة في خبرها ، مع ما يدل عليه الفعل المضارع (نراك) من التحقق ، والرؤية المتجددة المستمرة ، ثم عطفوا على ذلك قولهم : (وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ) وهذه الجملة سبب عن الجملة المعطوفة ، فقد أوجب طعنه في دينهم رجمه لولا مكان عشيرته فيهم ، ثم عطفت جملة (وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ) على جملة (ولولا رهطك لرجمناك) تأكيدا لمضمونها ، وتحذيرا من الاستمرار في مخالفتهم .عطفت جملة (وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ) من الآية (93) على جملة (يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ) من الآية (92) عطف نداء على نداء زيادة في تنبيهم ، وعطفت جملة (وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ) على جملة (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا) ، وعطفت جملة (فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ) على جملة (وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ) بالفاء التي تدل على السرعة في سقوطهم والقضاء عليهم ، والجملة المعطوفة سبب عن الجملة المعطوف عليها ؛ فقد تسبب عن أخذهم بالصيحة أن أصبحوا في ديارهم جاثمين أي ميتين ، ثم وضح الجثوم بقوله (كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا) ولذلك فصلت هذه الجملة ولم تعطف على سابقتها ؛لأنها توضيح وبيان لها .

انتقلت الآيات بعد ذلك إلى قصة موسى ، فعطفت جملة (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا) على جملة (وإلى مدين أخاهم شعيبا) عطف القصة على القصة ، ثم عطفت جملة (فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ) من الآية (97) على جملة (أرسلنا موسى) من الآية (96)، والجملة المعطوفة سبب عن الجملة المعطوف عليها ،وتدل الفاء على سرعة اتباع أمر فرعون ، وتكذيبهم لموسى وما جاء به من البينات . عطفت جملة (فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ) من الآية (98) على جملة (يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) وجاء بصيغة الماضي في قوله (فأوردهم) مع أن ذلك لم يقع في الماضي بقرينة قوله (يوم القيامة) التي تدل على أنه لم يقع بعد ، للدلالة على تحقق وقوعه ، كأنه أمر قد بتّ، وفرغ منه ، مع ما يوحي به معنى الإيراد من التهكم من فرعون وقومه ؛ لأن الإيراد يكون في السقيا يقول البيضاوي : (ونزل النار لهم منزلة الماء فسمى إتيانها موردا ثم قال : (وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ) أي بئس المورد الذي وردوه فإنه يراد لتبريد الأكباد وتسكين العطش والنار بالضد) [33].عطفت جملة (وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ

الْقِيَامَةِ) من الآية (99) على جملة (فأوردهم النار) أي ترادفت عليهم لعنتان لعنة في الدنيا ، ولعنة في الآخرة [34]، والتعبير باسم الإشارة عن الدنيا بقوله (هذه) إشارة إلى التحقير من شأنها ، كما أن(يوم القيامة) معطوف على موضع (في هذه) ، والمعنى أنهم أُلحقوا لعنة في الدنيا وفي الآخرة . عطفت جملة (فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ) من الآية (101) على جملة (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ) والجملة المعطوف عليها سبب في المعطوفة ، أي فتسبب عن ظلمهم أنفسهم بعبادة غير الله والإشراك به أن أصنامهم وآلهتهم المزعومة لم تغن عنهم شيئا ولم تنفعهم على أي وجه من الوجوه،ولعل زيادة (من) وتنكير كلمة (شيء) يؤكد هذا ، أي وإن كان هذا الشيء قليلا.عطفت على الجملة السابقة جملة (وما زادوهم غير تتبيب)إمعانا في التأكيد على عدم نفع تلك الأصنام التي اعتمدوا عليها ودعوها من دون الله ، بل لم تزدهم إلا خسرانا وتدميرا .عطفت جملة (وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ) على جملة (ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ) من الآية (103) للتهويل من ذلك اليوم وهو يوم القيامة، .عطفت جملة (وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ) من الآية (108) على جملة (فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ) الآية (106) فإنه لما انقضى أمر الأشقياء عطف على ذلك الفريق المقابل وهم السعداء ، والجملتان المتعاطفتان تصور حال الفريقين تصويرا بديعا . ثم عطفت جملة (وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ) من الآية (109)على جملة (ما يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ) الواقعة تعليلا لانتفاء شك النبي ﷺ فيما يعبد هؤلاء وفي عاقبة أمرهم .

عطفت جملة (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ) من الآية (110) على جملة (فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ) من الآية (109) ، وفي ذلك تثبيت للنبي ﷺ وتسلية له .فكما أعرض المشركون من أهل مكة عن اتباع النبي ﷺ مع ما أتى به من المعجزات، وأنزل عليه من الكتاب . فكذلك موسى آتاه الله التوراة فآمن به قوم وكفر به آخرون فاختلف فيه كما اختلف في كتابك أنت يا محمد ؛ فالحال إذا عم خفّ كما يقال ، ويذكّر هذا بقول الخنساء في رثاء أخيها صخر :

ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي

عطفت جملة (فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ) بكل ما عطف عليها وتعلق بها على جملة (فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء) من الآية (109)، كما عطف (ومن تاب معك) على الضمير المستكن في (فاستقم) وأغنى الفاصل (من) عن التوكيد.

عطفت جملة (وَلَا تَطْغَوْا) من الآية (112)على جملة (فاستقم كما أمرت ومن تاب معك) وعطفت جملة (وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا) من الآية (113) على جملة (ولا تطغوا) فبعد أن أمر الله نبيه ﷺ ومن تاب معه من المؤمنين بالاستقامة

، وعطف على ذلك نهيهم عن الطغيان ، عطف على ذلك أيضا نهيهم عن التقرب من الذين ظلموا/ المشركين لئلا يضلوهم ، ثم عطف على ذلك الأمر بإقامة الصلاة بقوله : (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ)، ثم عطف على ذلك قوله (وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ المحسنين)وهي تفيد تثبيت النبي ﷺ ومن معه ، كما أن التكاليف السابقة من الأمر بالاستقامة والنهي عن الطغيان والنهي عن الركون إلى المشركين ، والأمر بإقامة الصلاة لا تخلو من مشقة ، فناسب أن يعطف على ذلك الأمر بالصبر . وفي قوله تعالى : (فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (116) عطفت جملة (واتبع الذين ظلموا ماأترفوا فيه) على محذوف دل عليه الكلام ، والتقدير : (فلم ينهوا عن الفساد واتبع الذين ظلموا). يقول الزمخشري تعليقا على هذه الآية : (فإن قلت : علام عطف قوله (واتبع الذين ظلموا)؟ قلت : إن كان معناه واتبعوا الشهوات كان معطوفا على مضمر ، لأن المعنى إلا قليلا ممن أنجينا منهم نهوا عن الفساد ، واتبع الذين ظلموا شهواتهم ، فهو عطف على نهوا .) [35]، وجملة (وكانوا مجرمين) عطفت على (أترفوا) : أي اتبعوا الإترف وكونهم مجرمين لأن تابع الشهوات مغمور بالآثام .عطفت جملة (وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ) من الآية (117) على جملة (وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ) من الآية (116) حيث يشير مضمون الجملة المعطوف عليها لتعرض المجرمين لحلول العقاب بهم بناء على نعتهم بالإجرام ، فتبع ذلك بأن نزول العذاب بالقرى السابقة لم يكن من الله ظلما ، ولكنهم جروا لأنفسهم العذاب والهلاك بسبب إفسادهم في الأرض . عطفت جملة (وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) من الآية (119) على جملة (وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

عطفت جملة (وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ) من الآية (121) على جملة (وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ) من الآية (120)، فلما ذكر نفع هذا الحق ، ناسب أن يعطف عليه قوله : (وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ) وعطفت جملة (وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ) على جملة (اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ) تهديدا ووعيدا .ولما تضمن هذا التهديد العلم والقدرة ، ناسب أن يعطف على ذلك قوله : (وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ).

المبحث الثاني : العطف ودوره في رسم اللوحة القرآنية

العطف وسيلة لغوية تنهض بوظيفة تركيبية هامة ، وهي إطالة بناء الجملة حتى تستغرق الآية والآيتين بل والمجموعة من الآيات ، ويترتب عل ذلك- غالبا- بناء لوحة قرآنية ، يقوم العطف مع غيره من الوسائل اللغوية ببناء هذه اللوحة الفنية فتمثل أمام أعيننا ، كأننا نرى مكوناتها تنبض بالحياة والحركة ؛ فأمر الله لنبيه نوح - عليه السلام - ببناء السفينة بعد أن أوحي إليه أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن، وما حدث من حوار بينه وبين ابنه ، ومشد انتهاء الطوفان، كل ذلك يصوره القرآن

كأنه يحدث أمام أعيننا في بلاغة آسرة . اسمع إلى القرآن وهو يقول : (وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (38) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ (39)) فجملة (ويصنع الفلك) معطوفة على جملة (واصنع الفلك) ، ولاحظ تعبير القرآن عن صنع نوح للسفينة بصيغة المضارع (ويصنع) التي تدل على الحدوث والتجدد، ولم يقل (وصنع) ، كأننا نرى نوحا – عليه السلام- يصنع السفينة الآن ، ونرى قومه يمرون عليه ساخرين . كأننا نرى ذلك ونلمسه ، ثم تأتي جملة (قال إن تسخروا منا) مقطوعة غير معطوفة ؛ لأنها جواب عن سخريتهم ؛ ولذلك فصلت ، ولم تعطف على سابقتها ، فهي موصولة بها بدون رابط تركيبي . ثم تعطف بعد ذلك جملة (فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه) على جملة (فإنا نسخر منكم كما تسخرون) ، ثم تعطف جملة (يحل عليه عذاب مقيم) على جملة (يخزيه) إمعانا في تأكيد تحقق وقوع العذاب على هؤلاء الذين يسخرون مما يفعل نوح وأتباعه المؤمنون ، ودليلا على ثقة نوح بأنه على الحق . ويستمر المشهد القرآني (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (40)) فبعد أن جاء أمر الله، عطف عليه جملة (وفار التنور) أي نبع الماء بشدة تشبيها بالفوران إذا وصل إلى درجة الغليان ، ثم يأتي بعد ذلك الأمر إلى نوح بأن يحمل معه من كلّ زوجين اثنين في جملة طالت من خلال تقييد أحد عناصرها وهو المفعول به (زوجين) بالعطف عليه بالمفرد ، فقد عطف عليه أولا (أهلك) ، ثم الموصول وصلته وهما كالشيء الواحد (ومن آمن) ، ويستمر القرآن (وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِاسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) (41) فيعطف هذه الجملة (وقال اركبوا فيها) على جملة (قلنا احمل فيها) من الآية السابقة لتترابط الآيتان ، (وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (42) قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (43)عطفت جملة (ونادى نوح ابنه) على جملة (وقال اركبوا فيها) من الآية السابقة فلم تعطف على الجملة التي تليها مباشرة وهي جملة (وهي تجري بهم في موج كالجبال) ؛ لأنه لا يعقل أن نوحا نادى ابنه حال جريان السفينة في موج كالجبال ؛ إذ يستحيل إيقافها بعد انطلاقها بهذه الصورة المهولة (في موج كالجبال) ومن أجل هذا ناسب أن تعطف على جملة (وقال اركبوا فيها) جملة (ونادى نوح ابنه)، ثم عطفت جملة (ولا تكن مع الكافرين) على (أمره بالركوب) فامتناعه عن الركوب يجعله مع الكافرين ، وهذا الحوار الدائر بين نوح وبين ابنه كأننا نراه بأبصارنا ، ونسمعه بآذاننا ، وأما جملة (قال : سآوى إلى جبل يعصمني من الماء) وجملة (قال : لا عاصم اليوم من أمر الله) فقد فصلتا ولم تعطفا؛ لأنهما

وقعتا في سياق المحاورة ، فهما متصلتان بما قبلهما بدون رابط شكلي، ثم تأتي جملة (وحال بينهما الموج) معطوفة على ما قبلها، ومؤذنة بانتهاء المشهد هذه النهاية الدامية ، وتعطف عليها جملة (فكان من المغرقين) بالفاء التي تدل على السرعة في إغراق ابن نوح ومن معه من الكافرين .

هكذا يقوم العطف برسم أوصال تلك القصة وتصوير أحداثها في لوحة بديعة من لوحات القرآن الفنية .انتقل القرآن بعد إغراق الكافرين ، ونجاة المؤمنين إلى مشهد انتهاء الطوفان في بلاغة آسرة . اسمع إليه وهو يقول : (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) (44) وهذا مشهد انتهاء الطوفان بعد أن نجا من نجا من المؤمنين، وغرق من غرق من الكافرين يصوره القرآن من خلال تتابع الجمل المعطوفة في تناسق بديع ، وكيف رتب القرآن خيوط هذا المشهد ، وكيف تم الاتصال بين هذه الجمل ؟ بدأ المشهد بعطف جملة (وقيل...) على ما سبق ، وهو ما ساعد على تماسك الآيات وترابطها ، ونحن نجد أمر الله للأرض بأن تبلع ماءها، وللسماء أن تقلع أي تكف عن إنزال المطر ؛ ومن أجل هذا ناسب أن يعطف على الجملتين السابقتين جملة (وغيض الماء)؛ فغيْض الماء نتيجة مترتبة على بلع الأرض ماءها، وإقلاع السماء عن إسقاط أمطارها؛ فالجملة المعطوف عليها سبب في الجملة المعطوفة ، مع ملاحظة بناء الفعلين (قيل ، وغيض) للمفعول اختصارا لظهور الفاعل ، وهو الله – سبحانه وتعالى- ؛ لأن مثل هذه الأفعال لا تصدر إلا عن الله .ثم بعد ذلك عطفت جملة (وقضي الأمر) على جملة (وغيض الماء) فبعد أن غاض الماء بأمر الله ، ناسب أن يعطف على ذلك هذه الجملة التقريرية التي تؤكد على حقيقة المعجزة ، وتؤذن بالختام ، فقد نجا من نجا، وهلك من هلك ، ثم بعد ذلك تعطف على الجملة السابقة جملة تفيد استقرار السفينة على المكان الذي كتب لها أن تستقر عليه وهو الجودي ، ثم عطف على ذلك قوله : (وقيل بعدا للقوم الظالمين) وهو دعاء يؤكد أن الغرق لم يشمل إلا من يستحق العذاب من أهل الأرض .

ومن اللوحات والمشاهد القرآنية التي تحكمت فيها ظاهرة العطف فساعدت على نسج خيوطها ، وكونت لحمتها وسداها، الصورة الفنية التي رسمها القرآن للمعجزة التي أتى بها صالح قومه ، وهي صورة الناقة التي انفلقت عنها الصخرة أمام أعينهم وبين ظهرانيهم ، وأمرهم صالح أن يتركوها تأكل في أرض الله ولا يمسوها بسوء حتى لا يصيبهم الله بعذاب من عنده ، فما كان منهم إلا أن عقروها ، انظر إلى القرآن وهو يرسم ذلك بقوله : (وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (64) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ) (65) فجملة (ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية) عطفت على جملة (وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب) من الآية (62) جوابا عن شكهم فيما دعاهم إليه صالح من عبادة الله الواحد الأحد ، والرجوع والتوبة إليه،

فجاء لهم بمعجزة تزيل شكهم ، وهي خلق الناقة بقدرة الله الخارقة ، وانفلاق الصخرة عنها مشاهدين لذلك ، ثم عطفت جملة (فذروها تأكل في أرض الله) على جملة (هذه ناقة الله لكم آية) ، أمرهم أن يتركوها تأكل في أرض الله ، ثم عطف على ذلك النهي عن الاعتداء عليها بجملة (ولا تمسوها بسوء) لكي لا يأخذهم الله بعذاب قريب ، لكن تصلبهم في عنادهم ، وتماديهم في غيهم جعلهم يذبحونها رغم أمرهم ونهيهم عن ذلك وتهديدهم بعذاب الله إن هم فعلوا ؛ ولذلك عطف على ذلك جملة (فعقروها) بالفاء التي تدل على السرعة في الفعل واتخاذ القرار ، فهم لم يتريثوا ولم يتوانوا عن أخذ القرار ؛ ومن أجل هذا عطف على الجملة السابقة (فعقروها) جملة (فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام) بالفاء التي تدل على السرعة أيضا سرعة إنزال العقاب بهم اتساقا مع قوله (فيأخذكم عذاب قريب) فالرابط بين الجملتين رابط سبب بنتيجة ، فعقرهم للناقة ، كان سببا في تبشيرهم بالعذاب ، وبذلك ترابطت الجملتان ترابط السبب بالنتيجة.

لقد طال بناء الجملة الأصلية في الآية السابقة من خلال الجمل المتعاطفة بعضها في إثر بعض، وقد ساعد ذلك على رسم الصورة الفنية لتلك المعجزة ، حتى لكأننا نرى تلك الناقة ماثلة أمام أعيننا ، ونرى صالحا – عليه السلام – يأمر قومه أن يتركوها، وينهاهم أن يمسوها بسوء ، ونراهم كذلك وهم يضربون بأوامره ونواهيه عرض الحائط ، ويعقرونها .

المبحث الثالث : عطف الجمل المتباعدة

قد لا تعطف الجملة على الجملة التي تليها مباشرة ، بل تعطف على جملة مفصولة عنها بكلام آخر ؛ لكن هذا الكلام لا يكون منبت الصلة عن الجملة المعطوف عليها، والضامن لعطف هذه الجمل المتباعدة أو المنفصلة هو صحة المعنى ، وهو ما يعمل على تماسك الجمل ، ومن ثم تماسك النص وترابطه ، وقد حدّث عبد القاهر الجرجاني عن ذلك حديثا لا يخلو من الإعجاب بهذه الظاهرة ، واعتبر ذلك فنا من القول خاصا ودقيقا . يقول :(هذا فن من القول خاص ودقيق . اعلم أن مما يقل نظر الناس فيه من أمر العطف أنه قد يؤتى بالجملة فلا تعطف على ما يليها ، ولكن تعطف على جملة بينها وبين هذه التي تعطف جملة أو جملتان .)[36]

ومما جاء من ذلك في سورة هود أن جملة (وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ) من الآية (36) مع ما عطف عليها وتعلق بها ، عطفت على جملة (قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا) من الآية (32) ، وقد فصل بين الجملتين بجمل كثيرة ، بل بثلاث آيات كاملة ، وهو ما ساعد على الترابط والتماسك بين الجمل المشكلة للآيات ، مع ملاحظة أن الجمل المتوسطة بين الجملتين مرتبطة بالجملة المعطوف عليها ، ومتعلقة بها . وبذلك يكون قد عطف مجموع على مجموع (فأمر العطف إذن ، موضوع على أنك تعطف تارة جملة على جملة ، وتعمد أخرى إلى

جملتين أو جمل فتعطف بعضا على بعض ، ثم تعطف مجموع هذي على مجموع تلك .)[37] ومن ذلك عطف جملة (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ) من الآية (57) على جملة (إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ) من الآية (54) بفاء التفريع ، والجملة المعطوفة تفصيل لمضمون الجملة المعطوف عليها ، وقد فصل بينهما بست جمل ، ولو جرينا على الظاهر وعطفنا جملة (فإن تولوا) على ما يليها مباشرة منع من ذلك المعنى ، فعطف الجمل المتباعدة أساسه المعنى .

وفي قوله تعالى (وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ (89) وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ)(90) نلاحظ أن جملة (واستغفروا ربكم) لم تعطف على الجملة التي تليها مباشرة وهي جملة (وما قوم لوط منكم ببعيد) ، وإنما عطفت على جملة (لا يجرمنكم شقاقي) ففصل بين الجملتين المتعاطفتين بالجملة الحالية (وما قوم لوط منكم ببعيد) ، ومسوغ العطف هو مناسبة المعنى ؛ ذلك أن شعيبا – عليه السلام – لا يريد لهم أن تجر إليهم عداوته إصابتهم بمثل ما أصاب قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط ، فهو ينهى عن أن يجر إليهم الشقاق العذاب لهم مثل ما حدث مع القرى السابقة ؛ ومن أجل ذلك ناسب أن يعطف على معنى هذا النهى أمرهم بالاستغفار ، ثم العطف على ذلك بالتوبة والإقلاع عما هم فيه من الشرك والشقاق . مع ملاحظة أن الجملة التي توسطت بين الجملتين المتعاطفتين ليست منبتة الصلة عن الجملة المعطوف عليها ؛ فهي داخلة في حيزها؛ إذ هي حال من ضمير النصب في (يصيبكم) فهي مرتبطة بها بواو الحال ، وصاحب الحال هم المخاطبون من قوم شعيب ، وبذلك تتماسك الجمل وتترابط رغم تباعدها ، وتتناسق الضمائر .وفي قوله تعالى : (فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ (109) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ(110)

نجد أن جملة (ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه) من الآية (110) قد عطفت على جملة (فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء) فقد فصل بين الجملتين المتعاطفتين بجملتين هما : جملة (ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل) وجملة (وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص) فالجملة المعطوفة تسلية للنبي ﷺ وتخفيف عليه كي لا يأس من اختلاف قومه عليه ؛ لأن أهل الكتاب قد أوتوا الكتاب فاختلفوا فيه ؛ وفي ذلك تثبيت للنبي ﷺ؛ ومن أجل ذلك عطف على الجملة المعطوفة بعد ذلك جملة (فاستقم كما أمرت) من الآية (112) وبين الجملتين المتعاطفتين جملتان ذواتا صلة بالجملة المعطوف عليها ؛ فجملة (ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل) جملة تعليلية لانتفاء مرية النبي في عاقبة أمر المشركين ، وأما جملة (وإنا لموفوهم نصيبهم) فمعطوفة على الجملة التعليلية السابقة ، وهي جملة اسمية مؤكدة تفيد الثبات والتأكيد ؛ فالجملتان غير منبتتي الصلة عن الجملة المعطوف عليها ،

وهكذا تتماسك الآيات رغم أن الجملتين المتعاطفتين متباعدتان .

ومن عطف الجمل المتباعدة للمناسبة في المعنى ، ما نجده من عطف جملة (واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين) الآية (115) على جملة (فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء) من الآية (109) فقد فصل بين الجملتين بخمس آيات كاملة، وعلى الرغم من بعد الشقة بين الجملتين المتعاطفتين إلا أنهما متصلتان من حيث المعنى ؛ لأنه لما كانت الجملة المعطوف عليها نهيا للنبي ﷺ أن يشك فيما سيحل بالمشركين من العرب من الهلاك ، كما حدث لأسلافهم من الأمم السابقة ممن كذبوا الرسل ، ناسب ذلك أن يعطف على هذا النهي الأمر بالصبر تثبيتا وتسلية للنبي ﷺ بسبب إرجاء عقاب هؤلاء المشركين .

المبحث الرابع : تعدد المعطوف عليه

تترابط الجمل المكونة للآية الواحدة ، كما تترابط الآيات فيما بينها داخل السورة بواسطة العطف من خلال تعدد ما يعطف عليه ، ويكون العطف جائزا ، أي أن (تعدد المعطوف عليه يخضع لإمكانية العطف ، ثم تبرير المعطوف عليه في حالة تعدده) [38]

ففي قوله تعالى : (قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ (80)) نلاحظ أن الجملة الفعلية (آوي) يجوز أن تكون معطوفة على الجملة الفعلية (ثبت أو استقر) إن قدرت أنّ ومعموليها (أن لي بكم قوة) في محل رفع فاعل لفعل محذوف بعد لو، والتقدير : لو ثبت أو استقر أن لي بكم قوة أو آوي . ويجوز أن يكون (آوي) معطوفا على المعنى ، والتقدير (أو أني آوي) ، وقد ذهب إلى ذلك أبو البقاء العكبري بقوله : (ويجوز أن يكون في موضع رفع خبر (أن) على المعنى ؛ تقديره : أو أني آوي)[39] .

ويجوز أن يكون (آوي) منصوبا بإضمار أنْ بعد أو فتتقدر بالمصدر عطفا على (قوة) ، ويكون التقدير : لو أن لي بكم قوة أو إيواء إلى ركن شديد ، وقد ذهب إلى ذلك كل من القرطبي ، وأبوحيان الذي يقول :(وفي قراءة شيبة ، وأبي جعفر (أو آوي) بنصب الياء بإضمار (أن) بعد (أو) ، فتتقدر بالمصدر عطفا على (قوة)، ونظيره من النصب بإضمار أن بعد أو قول الشاعر :

ولولا رجال من رزام أعزة وآل سبيع أو يسؤوك علقما

أي : أو مساءتك علقما)[40]

لقد ترابطت الجملتان المكونتان للآية السابقة بواسطة العطف من خلال تعدد المعطوف عليه ؛لأن المعنى يسمح بإمكانية تعدد المعطوف عليه .

وفي قوله تعالى : (فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ (109) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ

(110) نلاحظ إمكانية تعدد الجملة المعطوف عليها في الآيتين السابقتين ، وما يترتب على ذلك من ترابط الجمل المكونة لهاتين الآيتين ، وما يترتب على ذلك أيضا من اختلاف مرجعية الضمائر ، وتعدد الأوجه الإعرابية تبعا لتعدد المعطوف عليه . فجملة (ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم) من الآية (110) يمكن أن تكون معطوفة على جملة (وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص) من الآية (109) ، وعلى ذلك فقد فصل بين الجملتين المتعاطفتين بجملة (ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه) ، ويترتب على ذلك أن يحيل الضمير في قوله (بينهم) إلى اسم الإشارة من قوله (مما يعبد هؤلاء) أي لقضي بين هؤلاء المشركين .

ويمكن أن تكون الجملة السابقة معطوفة على جملة (فاختلف فيه) من الآية نفسها ، وعلى ذلك فلا فصل بين الجملتين المتعاطفتين ، ويترتب على ذلك أن يحيل الضمير في (بينهم) إلى ما يفهم من قوله (فاختلف فيه) وهم قوم موسى المختلفون في أحكام التوراة . قال القرطبي (قيل: المراد بين المختلفين في كتاب موسى ، فإنهم كانوا بين مصدق ومكذب . وقيل : بين هؤلاء المختلفين فيك يا محمد بتعجيل العقاب) [41]. ويجوز أن تكون جملة (وإنهم لفي شك منه مريب) من الآية (110)معطوفة على جملة (وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص) من الآية (109) ، وعلى ذلك فقد فصل بين الجملتين المتعاطفتين بثلاث جمل هي : (ولقد آتينا موسى الكتاب) ، (فاختلف فيه) ، (ولولا كلمة سبقت من ربك) ، ويكون الضميرفي (إنهم) محيلا إلى المشركين من أهل مكة ؛ أي أن المشركين في شك من توفية نصيبهم ؛ لأنهم لا يؤمنون بالبعث ، ويتناسق ذلك مع قوله : (ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم) ، والضمير في (منهم) محيل إلى كلمة (يوم) من قوله : (يوم تأت لا تكلم نفس) ، ويجوز أن تكون الجملة السابقة معطوفة على جملة (فاختلف فيه) وضمير (إنهم) يحيل إلى ما أحال إليه ضمير (بينهم) أي اختلف أهل الكتاب في كتابهم وإنهم لفي شك ، وضمير (منه) يحيل إلى الكتاب أو إلى القرآن المفهوم من المقام .

وفي قوله تعالى : (فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (116) يجوز أن تكون جملة (فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية) معطوفة على جملة (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة) من الآية (102) ، ومسوغ العطف بين الجملتين رغم تباعد ما بينهما ، فقد فصل بينهما بخمس عشرة آية كاملة أن القرون كما ذكر صاحب البحر المحيط هي : قوم نوح ، وعاد ، وثمود، ومن تقدم ذكره [42] . فالمقصود بالقرون في الجملة المعطوفة القرى المذكورة في الجملة المعطوف عليها ، والمعنى هو التفجع الذي صحب لولا التحضيضية الذي يجب أن يقع من البشر على هذه الأمم التي لم تهتد . ويجوز أن تكون الجملة السابقة معطوفة على جملة (فاستقم كما أمرت) من الآية (112) مع ما عطف عليها

وتعلق بها ، والجملة المعطوفة تعليل وتفصيل للجملة المعطوف عليها ، فالجملة المعطوفة نهي عن الفساد عطفا على الأمر بالاستقامة ، وعلى هذا الوجه فقد فصل بين الجملتين المتعاطفتين بأربع آيات كاملة ، ومع ذلك فهما متماسكتان دلاليا.

وهكذا نلاحظ أنه رغم تعدد إمكانية تعدد الجملة المعطوف عليه في الأمثلة السابقة ، تترابط الآيات المكونة للسورة الكريمة من خلال العطف ، مع ملاحظة أن الجملة المعطوف عليها تبرر دلاليا حال تعددها ؛ لأن البنية المعنوية التي تحكم العطوف المتعددة متماثلة ، وهي في المثال الأخير بنية السبب والنتيجة فالجملة المعطوفة كانت سببا للجملة المعطوف عليها كما رأينا .

وقد يتعدد المعطوف عليه تبعا لتعدد معناه كما في الآية السابقة ؛ فجملة (وكانوا مجرمين) يمكن أن تكون معطوفة على جملة (أترفوا) أي : اتبعوا الإتراف ، وكونهم مجرمين ؛ لأن تابع الشهوات مغمور بالآثام ، أو أريد بالإجرام إغفالهم للشكر ، ويجوز أن تكون معطوفة على جملة (واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه) أي : اتبعوا شهواتهم وكانوا مجرمين بذلك .يقول الزمخشري في تناوله لهذه الآية (فقوله : (وكانوا مجرمين) . قلت : على أترفوا : أي اتبعوا الإتراف ، وكونهم مجرمين ؛ لأن تابع الشهوات مغمور بالآثام ، أو أريد بالإجرام إغفالهم للشكر ، أو على اتبعوا : اي اتبعوا شهواتهم وكانوا مجرمين بذلك .)[43]

المبحث الخامس : ترابط الجمل والآيات بدون حروف العطف

تترابط الجمل والآيات المكونة للحمة السورة القرآنية وسداها بحروف العطف المختلفة كالواو وغيرها من أدوات العطف ، وقد تغيب هذه الحروف ، فتبدو الجمل والآيات المشكلة لهذه السورة منفصلة ، وعلى الرغم من ذلك تظل هذه الجمل والآيات مترابطة متماسكة مستعيضة عن الروابط التركيبية بروابط وعلاقات معنوية قائمة بين جملها وآياتها ، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى : (وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (8) حيث نلاحظ أن جملة (ألا يوم يأتيهم) فصلت ، فلم تعطف على ما قبلها ؛ لأنها وقعت موقع الجواب عن سؤال المشركين (ما يحبسه؟) أي ما يمنع عنا العذاب ؟ تهكما واستخفافا ؛ لأن ما استفهامية ، والغرض من الاستفهام هو التهكم حسب اعتقادهم ، وقد عمل الاستفهام المذكور في كلامهم ، والجواب عنه على جعل الكلام متصلا دون وجود رابط تركيبي ظاهر كالواو مثلا .وعلاقة السؤال والجواب من العلاقات النصية الناظمة لتركيب النص والتي تجعل الكلام آخذا بعضه بعناق بعض .

وفي قوله تعالى : (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (13) نجد أن جملة (قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات) جاءت مقطوعة عما قبلها فلم تعطف ؛ لأنها وقعت موقع

الجواب عن سؤال مقدر من المشركين بعد (أم) المنقطعة التي تختص بالدخول على الاستفهام ، والتقدير : بل أيقولون افتراه ؟ قل فأتوا ، وبذلك ترابطت الجملتان من خلال زوج الاستفهام المقدر / الجواب دون وجود رابط تركيبي ظاهر في البنية السطحية للنص .

وقد تقطع الجملة عن سابقتها فلا تعطف لغرض دلالي قد يفوت لو عطفت كأن تكون الجملة المقطوعة تعليلا للجملة السابقة عليها ، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى : (..وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (3) إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (4) حيث فصلت جملة (إلى الله مرجعكم) ولم تعطف على جملة (فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير) لأنها تعليل لها . كما أن جملة (إنه عليم بذات الصدور) من قوله تعالى : (أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (5) جردت عن العاطف فلم تعطف على جملة (يعلم ما يسرون وما يعلنون ؛ لأنها نتيجة وتعليل لها . ومن ذلك قوله تعالى أيضا: (وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ) من الآية (31) حيث فصلت جملة (الله أعلم بما في أنفسهم) ، ولم تعطف على جملة (لن يؤتيهم الله خيرا) ؛ لأنها تعليل لنفي أن يقول نوح : لن يؤتيهم الله خيرا ، كما أن جملة (إني إذن لمن الظالمين) تعليل ثان لنفي قول نوح ،ففصلت هي الأخرى ولم تعطف، وبذلك تماسكت الجملتان بالجملة السابقة عليهما دون وجود رابط ظاهر من خلال علاقة التعليل .

وحق الجملة التي تقع تفسيرا وبيانا للجملة السابقة عليها أن تقطع فلا تعطف ، كما جاء في قوله تعالى في سورة مريم الآيتان (3، 4) (إذ نادى ربه نداء خفيا . قال رب إني وهن العظم مني) ففصلت جملة (قال رب إني وهن العظم مني) ولم تعطف على جملة (نادى ربه نداء خفيا) ؛ لأنها بيان وتفسير لها ، أما في قوله تعالى في سورة هود (وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي) من الآية (45) فقد عطفت جملة (فقال إن ابني من أهلي) على جملة (ونادى نوح ربه) بالفاء على الرغم من أن الجملة المعطوفة بيان للنداء ، ووجه عطف الجملتين أن الفعل (نادى) مستعار لمعنى إرادة النداء ، أي أراد نداء ربه فأعقب إرادته بإصدار النداء، يقول الزمخشري: (فإن قلت : فإذا كان النداء هو قوله – رب – فكيف عطف قال رب على نادى بالفاء ؟ قلت : أريد بالنداء إرادة النداء ، ولو أريد النداء نفسه فجاء كما جاء قوله : إذ نادى ربه نداء خفيا – قال رب بغير فاء .)[44]

وفي قوله تعالى : (قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا..) من الآية (48) فصلت الجملة ولم تعطف على ما قبلها ؛ لأنها وقعت في سياق الحوار بين نوح وبين ربه ، وهو ما يسمى بعطف التلقين أو المقاولة كما أطلق عليه السكاكي حيث قال : (فإن الفصل في جميع ذلك بناء على أن السؤال الذي يستصحبه تصور مقام المقاولة من

نحو ، فماذا قال موسى ؟ فماذا قال فرعون ؟) [45].ويقول عبد القاهر الجرجاني (واعلم أن الذي تراه في التنزيل من لفظ (قال) مفصولا غير معطوف ، هذا هو التقدير فيه ، والله أعلم . أعني مثل قوله تعالى (هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين . إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون . فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين . فقربه إليهم قال ألا تأكلون . فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف) الذاريات 24 – 28) جاء على ما يقع في أنفس المخلوقين من السؤال فلما كان في العرف والعادة فيما بين المخلوقين إذا قيل لهم : " دخل قوم على فلان فقالوا كذا " ، أن يقولوا : " فما قال هو؟ " ، ويقول المجيب :" قال كذا" ، أُخرج الكلام ذلك المُخْرَج، لأن الناس خوطبوا بما يتعارفون ، وسلك باللفظ معهم المسلك الذي يسلكونه .) [46]

وقد تكون الجملة مبينة لإجمال جملة أخرى ، فلا تعطف عليها؛ ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى : (قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (81) (فجملة لن يصلوا إليك) فصلت ولم تعطف على جملة (إنا رسل ربك)؛ لأنها مبينة لإجمالها ؛ فهي بمنزلة عطف البيان .[47] ، وجملة (إن موعدهم الصبح) لم تعطف أيضا ؛ لأنها ابتداء قطعت اهتماما وتهويلا[48] وفي قوله تعالى في قصة شعيب :(وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت عليه توكلت وإليه أنيب) من الآية (88) حيث فصلت جملة (إن أريد إلا الإصلاح) ولم تعطف على جملة (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه) لأنها بيان لها .

وحق الجملة المؤكدة لمضمون الجملة التي تسبقها ألا تعطف عليها ؛ لأن شأن الجملة الموكدة مع الجملة المؤكدة شأن التأكيد مع المؤكد إذ لا يحتاجان إلى الواو ، وفي ذلك يقول عبد القاهر : (واعلم أنه كما كان في الأسماء ما يصله معناه بالاسم قبله ، فيستغني بصلة معناه له عن واصل يصله ورابط يربطه وذلك كالصفة التي تحتاج في اتصالها بالموصوف إلى شيء يصلها به ، وكالتأكيد الذي لا يفتقر كذلك إلى ما يصله بالمؤكد كذلك يكون في الجمل ما تتصل من ذوات نفسها بالتي قبلها ، وتستغني بربط معناها لها عن حرف عطف يربطها . وهي كل جملة كانت مؤكدة للتي قبلها ومبينة لها ، وكانت إذا حصلت لم تكن شيئا سواها ، كما لا تكون الصفة غير الموصوف ، والتأكيد غير المؤكد. فإذا قلت : (جاءني زيد الظريف) ، وجاءني القوم كلهم) ، لم يكن (الظريف) و(كلهم) غير زيد وغير القوم .) [49]، ومما جاء في سورة هود من ذلك ما جاء في قوله تعالى : (فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ) من الآية (17) حيث جردت جملة (إنه الحق من ربك) عن العاطف لأنها تأكيد لما دلت عليه جملة (فلا تك في مرية منه).

وفي قوله تعالى (قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (72) نجد أن جملة (إن هذا لشيء عجيب) فصلت عن جملة التعجب (يا ويلتى أألد وأنا عجوز) ولم تعطف عليها ؛ لأنها مؤكدة لها ، وكأنها كانت مترددة في أنهم ملائكة فلم تطمئن لتحقيق بشراهم . وقد تعطف الجملة المؤكدة لمضمون سابقتها إذا أفادت مع التأكيد غرضا دلاليا آخر قد يفوت لوفصلت الجملتان، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى : (وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ) من الآية (91) فقد عطفت جملة (وما أنت علينا بعزيز) على جملة (ولولا قومك لرجمناك) ، مع أنها مؤكدة لمضمونها ، وكان مقتضى الظاهر ألا تعطف ، ومسوغ العطف هو أنها أفادت مع التأكيد حكما يخص شعيبا عليه - السلام- فعطفت على الجمل التي تفيد أحواله مثل جملة : ما نفقه كثيرا مما تقول ، وإنا لنراك فينا ضعيفا، ولولا رهطك لرجمناك .

خاتمة

حاول هذا البحث أن ينهض بمهمة الكشف عن دور العطف التركيبي والدلالي من خلال التطبيق على سورة من سور القرآن الكريم ، وهي سورة (هود) ، وقد انتهى البحث من خلال التطبيق إلى قيام العطف بدور تركيبي ، هو إطالة بناء الجملة من خلال عطف وضم الجمل بعضها إلى بعض ، وإلى دور دلالي هو ربط الجمل بعضها ببعض ومن ثم ترابط السورة كلها وتما سك أجزائها ورسم اللوحة القرآنية والمساعدة في نسج خيوطها.وقد جرّنا الحديث عن العطف الحديث عن القطع ، أو ما يطلق عليه البلاغيون الوصل والفصل في مقابل العطف والقطع عند النحاة ، والحق أن لا فرق بين المصطلحين ، وأيا ما كان الأمر فقد تغيب بعض حروف العطف فتبدو الجمل والآيات المكونة للسورة الكريمة منفصلة ، وأن لا رابط بينها ولا جامع ، وعلى الرغم من ذلك تظل هذه الجمل والآيات مترابطة متماسكة ، وتستعيض بروابط وعلاقات معنوية تغني عن الروابط التركيبية الظاهرة، ومن هذه العلاقات المعنوية التي تربط الجمل بعضها ببعض دون وجود روابط ظاهرة علاقة التعليل ، وعلاقة التفسير والبيان ، وعلاقة التأكيد وغيرها من العلاقات بين الجمل والآيات التي كشف عنها البحث .

ولم يقتصر دور العطف على عطف الجمل المتقاربة بأن يعطف الجملة على التي تليها مباشرة ، بل يعطف الجملة على جملة مفصولة بعدد من الجمل ، بل بعدد من الآيات ، وفي ذلك عطف لمجموع على مجموع ، وهذا نوع من التماسك النصي ، وتظل مع ذلك الجملتان المتعاطفتان المنفصلتان المتباعدتان متماسكتين ومترابطتين دلاليا .وفي نهاية البحث أخلص إلى ضرورة ربط النحو بالنصوص العربية الفصيحة ؛ ففي ذلك فائدتان : تحليل هذه النصوص وكشف أسرارها ، وبقاء النحو وتجديد عطائه ؛ لأنه يستمد هذا البقاء وهذا العطاء من خلال التطبيق على تلك النصوص .

الهوامش

1. في بناء الجملة العربية للدكتور محمد حماسة عبد اللطيف ص 178 .
2. شرح المفصل لابن يعيش ص88/ 8 .
3. شرح المفصل لابن يعيش ص90 / 8 .
4. أصول تحليل الخطاب د . محمد الشاوش ص484/ 1 .
5. دلائل الإعجاز ص 224 – 225 .
6. دلائل الإعجاز ص 224 .
7. مفتاح العلوم للسكاكي ص 271 .
8. الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ص 5/4 .
9. الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ص 5/4 .
10. السابق نفسه ص 5/5 .
11. تفسير البحر المحيط لأبي حيان ص 262/ 5 .
12. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ص 503 / 3 .
13. الجامع لأحكام للقرآن ص 11 /5 .
14. تفسير البحر المحيط ص 274 / 5 .
15. انظر اجتهادات لغوية للدكتور تمام حسان ص 243 ، وتفسير البحر المحيط ص278 / 5.
16. تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور المجلد السادس. الجزء الثاني عشر ص/ 76 .
17. إعراب القرآن وبيانه لمحي الدين الدرويش ص 439 / 3 .
18. الجامع لأحكام القرآن ص 35 /5 .
19. تفسير البحر المحيط ص304/ 5 .
20. نظم الدرر للبقاعي ص 543 / 3.
21. نظم الدرر ص 545 /3 .
22. معاني القرآن للفراء ص 20 / 2 .
23. مفتاح العلوم ص 258 .
24. الجامع لأحكام القرآن ص41/ 5 .
25. تفسير التحرير والتنوير12/6 ص114 .
26. إعراب القرآن وبيانه لمحي الدين الدرويش ص 459/ 3 .
27. تفسير التحرير والتنوير 6/ 12 / ص 125 .
28. تفسير البحر المحيط ص 321/ 5 ، ونظم الدرر ص 558 /3 .
29. تفسير البحر المحيط ص 322/ 5 .
30. تفسير التحرير والتنوير ص 129 .
31. رصف المباني في شرح حروف المعاني للمالقي ص 285 ، والجنى الداني في حروف المعاني للمرادي ص 270 .
32. الجامع لأحكام القرآن ص 61 / 5 ، وتفسير البيضاوي ص467 / 1 .
33. تفسير البيضاوي ص 1/469 ، والنسفي ص 512 ، وتفسير الخازن ص 329 / 2 .
34. تفسير الخازن ص 330 / 3 .
35. الكشاف للزمخشري ص 298 / 2 .
36. دلائل الإعجاز ص 244 .
37. السابق نفسه ص 245 .
38. لسانيات النص لمحمد خطابي ص 170 .
39. التبيان في إعراب القرآن للعكبري ص 38 / 2 .
40. تفسير البحر المحيط ص / 323 / 5 .، والجامع لأحكام القرآن ص 53 / 5 .
41. الجامع لأحكام القرآن ص 69 / 5 ، وتفسير البحر المحيط ص 346- 347 / 5 .

42. تفسير البحر المحيط ص353/ 5
43. الكشاف ص 298 /2 .
44. الكشاف ص 272 /2 ، وانظر كذلك تفسير البحر المحيط ص 298 / 5 ، وتفسير التحرير والتنوير 6 / 12 / 84 .
45. مفتاح العلوم ص 266 .وانظر كذلك أصول تحليل الخطاب للشاوش ص 442 .
46. دلائل الإعجاز ص 240 .
47. تفسير التحرير والتنوير 6/ 12 / ص 132 .
48. السابق نفسه ص 133 .
49. دلائل الإعجاز ص 227 .

ثبت المصادروالمراجع

- اجتهادات لغوية د . تمام حسان (عالم الكتب . القاهرة . الطبعة الأولى 2007 م.)
- أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية د . محمد الشاوش . المؤسسة العربية - تونس . الطبعة الأولى 2001م .
- إعراب القرآن للنحاس تحقيق : خالد العلي (دار المعرفة بيروت الطبعة الأولى 2006 م)
- إعراب القرآن وبيانه لمحي الدين الدرويش(دار ابن كثير. دمشق بيروت الطبعة الثالثة 2003 م .)
- التبيان في إعراب القرآن للعكبري (إشراف مكتب البحوث والدراسات - الطبعة دار الفكر- بيروت الأولى1997 م)
- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي(دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة الخامسة 1996 م)
- الجنى الداني في حروف المعاني للمرادي تحقيق : د. فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل (دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة الأولى 1992 م)
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل لجار الله الزمخشري (دار الفكر . الطبعة الأولى .)
- بلاغة العطف في القرآن الكريم دراسة أسلوبية د. عفت الشرقاوي (دار النهضة العربية بيروت 1981 م)
- تفسير البيضاوي المسمى أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي(دار الكتب العلمية- بيروت الطبعة الأولى 1988م)
- تفسير التحرير والتنوير لسماحة الشيخ محمد الطاهربن عاشور (دار سحنون. تونس)
- تفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن ومعه تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل للبغوي تحقيق : عبد السلام محمد على شاهين (دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة الأولى 1995 م)
- تفسير النسفي مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي تحقيق:(عبد المجيد طعمة حلبي (دار المعرفة – بيروت الطبعة الثانية 2008 م
- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني في الدراسات القرآنية والنقد الأدبي تحقيق : محمد خلف الله أحمد ، والدكتور محمد زغلول سلام (دار المعارف . القاهرة الطبعة الثالثة .)
- دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني تحقيق: محمود محمد شاكر (مهرجان القراءة للجميع 2000 م)
- رصف المباني في شرح حروف المعاني للمالقي تحقيق : أحمد محمد الخراط (مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق)
- شرح المفصل لابن يعيش (مكتبة المتنبي . القاهرة .)
- في بنا الجملة العربية . د . محمد حماسة عبد اللطيف (دار القلم – الكويت الطبعة الأولى

1982 م .)
- معاني القرآن للفراء تحقيق : محمد على النجار . دار السرور .
- مفتاح العلوم للسكاكي تحقيق : نعيم زرزور (دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة الأولى 1983م .)
- مقالات في اللغة والأدب الجزء الثاني د . تمام حسان(عالم الكتب الطبعة الأولى 2006م)
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي . تحقيق : عبد الرزاق غالب المهدي (دار الكتب العلمية – بيروت ـ الطبعة الثالثة 2006 م)